ملامح التجديد في مستويات الدرس اللساني العربي الحديث
عند تمام حسان

اعمر بالي
جامعة محمد الأول وجدة/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المغرب

مقدمة

اغترف تمام حسان من التراث اللغوي العربي القديم ما شاء الله، ونال منه بحظ وافر، ثم لجأ إلى الثقافة الغربية الحديثة ومناهجها، فنهل منها ما ارتضاه لخدمة التراث اللغوي العربي، فكانت الحصيلة توفيقا معرفيا بين القديم والحديث، ولعل الغاية الأساس التي سعى إليها تمام حسان من وراء ذلك كله هي أن يلقيَ ضوءا جديدا: " كاشفا على التراث اللغوي العربي كله، منبعثا من المنهج الوصفي في دراسة اللغة"[1].

وعلى ضوء ذلك؛ بسط تمام حسان القول في مستويات الدرس اللغوي العربي، التي سمّاها أنظمة، محاولا تيسيرها، وملتزما ببعض المعايير، كالنقد، والنقض، والتثمين، والتجديد، والتفسير، والإيضاح، حسب اجتهاده الشخصي، أو على ضوء الدرس اللساني الحديث، فبدت معالم التجديد وسماتُه واضحة لكل من يتأمل تراثه.

المحور الأول: ملامح التجديد في المستوى الصوتي

طبّق تمام حسان المنهج الوصفي على جميع مستويات اللغة، بادئا بالدرس الصوتي، خاصة وأن الموضوع الذي نال به درجَتَي الماجستير والدكتوراه متعلقان بهذا المبحث، ويعني ذلك أن تكوينَه الصوتيَّ قد ساعده كثيرا على إضفاء صبغة المنهج الوصفي عليه، وذلك واضح في مؤلفاته التي: " تعد حتى الآن هي الأساس الوحيد لدراسة اللغة دراسة علمية جادة"[2].

فالدرس الصوتي عنده لم يرد في كتاب واحد له، أو كتابين، وإنما جاءت مباحثه مبثوثة في جل مؤلفاته، والمتصفح لكتاب:**(اللغة العربية معناها ومبناها)** سيقف عند سؤال جوهري وضعه تمام حسان حول الدرس الصوتي عند نحاة العرب، وهو: **كيف كان موقف النحاة العرب من دراسة الأصوات العربية؟**

وفي الوقت نفسه سيكون له جواب لهذا السؤال، وذلك بعد عرض رؤية إمام النحاة سيبويه (ت180هـ)، ومنهجِه في دراسة الأصوات، من خلال **(الكتاب)**، كالآتي: "ويظهر أن سيبويه كان على وعي تام بأن دراسة الأصوات مقدمة، لا بد منها لدراسة اللغة، وأن النظام الصوتي ضروري، لمن أراد دراسة النظام الصرفي، بل لعله كان يرى في النظام الصوتي جزءا لاحقا، أو من دراسة الصرف نفسها، حتى إنه حين وضع الدراسات الصوتية تحت عنوان: (باب الإدغام)، قد كشف عن وجهة نظره هذه من جهة، وقيد دراسة الأصوات، وقيد مجالها من جهة أخرى... فتناول هذه الأصوات بالوصف من حيث المخرج، وطريقة النطق، والجهر، والهمس، والتفخيم، والترقيق، ناظرا إلى الصوت في حالة عزله عن السياق، تاركا سلوك الصوت في السياق إلى دراسة الإدغام نفسه"[3].

نستنتج من كلام تمام حسان جملة ملاحظات يمكن عرضها في الآتي:

1 – عدم استقلالية الدرس الصوتي عن مكونات اللغة الأخرى عند سيبويه .

2 – النظام الصوتي عند سيبويه مقدمة لا بد منها لدراسة الصرف، بل هو جزء لاحق للدراسة الصرفية نفسها.

3 – هناك تداخل بين أنظمة اللغة تحت ما يسمى بتكامل العلوم، وهو ما نلحظه بوضوح في معظم مؤلّفات القرون الأولى للإسلام.

وهكذا بنى تمام حسان نقده لسيبويه وغيره من النحاة الذين عاصروه، والذين أتوا من بعده في بعض المسائل، ولا سيما تلك التي ارتبطت بالفونولوجيا «phonologie»، أو علم الأصوات الوظيفي الذي سماه بالتشكيل الصوتي، وهو الذي ينطلق من النتائج التي توصّل إليها علم الأصوات، وأهم موضوعاته: الفونيم وما يتعلق به من قيم استبدالية وألوفونات، ثم المقطع، والنبر، والموقعية، والمجاورة، وغير ذلك. وقد كانت له جملة من الملاحظات، يمكن بسط بعضها فيما يلي:

1 – الحرف والصوت:

ينطلق الدرس الصوتي الحديث من الصوت إلى الحرف؛ لأنه بعد ملاحظة الأصوات ووصفها تُبَوَّب في مجموعات تسمى كل مجموعة منها حرفا، لكن سيبويه ومن عاصره قد ارتضَوا للأصوات العربية نظاما صوتيا مشهورا، هو أن لكل حرف رمزا كتابيا يدل عليه، دون النظر إلى ما يندرج تحته من أصوات، وإن كانت هناك أصوات تحت حرف ما، فلا تعدو أن تكون إدغاما له، أو إقلابا، أو إخفاء[4].

وتعقيبنا على كلام تمام حسان هنا، أن استعمال سيبويه للحرف بدل الصوت، لا يعني أنه لم يكن مدركا لذلك، وإنما قال بالحروف الأصول والفروع، وهذا دليل على أن سيبويه كان على دراية بما يعنيه كل من الصوت والحرف، وإدراكه لمسألة الفرع والأصل في الحروف دليلٌ تمييزه بين الفونيم والألوفون بالمفهوم الحديث. وقد أوضح الدكتور غانم الحمد هذا المعطى بقوله: " الظاهر الجلي، هو أن سيبويه يريد بمصطلح الحروف هنا الأصوات اللغوية، وليس الأصوات الكتابية، وأكثر سيبويه من استعمال مصطلح الحرف، والحروف بهذا المعنى"[5].

لكن تمام حسان له وجهة نظر حديثة تتمثل في كون الحروف ليست ما تنطقه بلسانك أثناء الكلام؛ لأنها أصوات، ولكن الحروف هي أقسام، يشكل كل واحد منها عددا من الأصوات[6].

أما من حيث مخارج الحروف، فقد عدها سيبويه ستة عشر مخرجا، بينما يراها تمام حسان خمسة عشر مخرجا. وهذه مسألة وقع فيها نقاش كبير، كمسألة اختلاف طبعات كتاب سيبويه وغير ذلك. وفي غالب ظننا أن سيبويه نفسه قد أزال هذا اللبس بتصريح، يقول فيه: "ولحروف العربية ستةَ عشرَ مُخرَجا"[7].

2 – الفونيم والألوفون: phonéme et allophone

يقول تمام حسان، بأن الفونيم: " في أحد معانيه يقصد به معنى الحرف"[8]، أي: هو ذلك الصوت، الذي يتميز بمخرج، وصفة مُعيَّنين، وله وظيفة الكشف عن القيم الخلافية، بحيث يؤدي استبدال حرف بآخر إلى تغيير في المعنى، مثل: (شابَ – خابَ). هنا أدى استبدال الشين بالخاء إلى اختلاف المعنى. وقد ينتج هذا الاختلاف في المعنى أيضا عن الترقيق والتفخيم، كالتاء والطاء مثلا في: (تابَ – طابَ). وقد تتقارب المخارج والصفات في الكلام، فتتحول صورة الصوت عن أصلها إلى الفرع الواحد، أو الفروع المتعددة. وقد مثل تمام حسان لهذه الظاهرة بما يلي:

– مثال الفونيم (الأصل)، النون في (أنا).

– مثال الألوفون أو الألوفونات (الفرع أو الفروع) الناتجة عن النون في: ينفع/ ينبغي/ من سعى/ من رأى/ ينجح/ ينظر/ ينكر/ ينقل[9].

نستنتج أن فونيم النون في حالته الأولى لم يخرج عن أصله، سواء من حيث الصفة أو المخرج كما في (أنا ونحن). أما في بقية الأمثلة، فقد خرجت هذه النون عن أصلها، سواء تعلق الأمر بالمخرج أو الصفة، فنون (ينبغي) مثلا، انقلبت ميما فصارت (يمبغي)، نتيجة للتأثر بالباء الشفهية التي جاورتها، طلبا للخفة وتيسير النطق.

وجملة الأمر التي أقرّها تمام حسان في هذه الظاهرة: " أن تغير المعنى عند المعاقبة يدل على اختلاف الأصلين، وامتناع المعاقبة يدل على وحدة الأصل"[10].

3 – المقطع الصوتي: Syllable

للمقطع الصوتي تعريفات عديدة، سواء الغربية منها أو العربية، فهو عند ماريو باي Mario pei: "عبارة عن قوة إسماع، غالبا ما تكون صوت علة مضافا إليها أصوات أخرى"[11]. وهو أيضا تلك: "الفترة الفاصلة بين عمليتين من عمليات غلق جهاز التصويت، سواء أكان الغلق كاملا أو جزئيا"[12] على حد تعبير جان كانتينو Jean cantineau.

وقد حاول الأستاذ غانم قدوري أن يصوغ تعريفا شاملا للمقطع، فَوَصل إلى أنه: "مجموعة أصوات، تنتج بضغطة صدرية واحدة، تبدأ بصوت جامد، يتبعه صوت ذائب (قصير أو طويل)، وقد يأتي متبوعا بصوت جامد أو اثنين، ويكون الصوت الذائب فيه قوة الإسماع، بالنسبة للأصوات الأخرى، التي يتألف منها المقطع"[13].

أما تمام حسان، فيرى أن تحديد مصطلح المقطع يصعب صعوبة تامة، لكن يمكن النظر إليه من وجهات مختلفة؛ لأن: "المقاطع تعبيرات عن نسق منظم من الجزئيات التحليلية، أو خفقات صدرية في أثناء الكلام، أو وحدات تركيبية أو أشكال وكميات معينة"[14].

والغالب عندنا أن صعوبة تحديد هذا المصطلح عند تمام حسان، راجعة إلى كونه أول من طَرَق هذا الباب في الدرس اللغوي العربي الحديث من جهة، وطبقه على اللغة العربية، واستنبط قواعده. ولأنه نقل هذه النظرية من لغات أجنبية إلصاقية، طُبِّقَت عليها هذه الظواهر المقطعية، لكونها لغات مبنية على الرتبة في الأساس، عكس العربية التي هي لغة اشتقاقية معربة، ومبنية على الحركات. وكل لغة تقطّع على طريقتها الخاصة كما جاء عند أندريه مارتنيه[15].

أما من حيث عدد المقاطع، فيرى تمام حسان أنه يجب التمييز منهجيا بين نوعين من المقاطع: "أولهما هو المقطع التشكيلي، والآخر هو المقطع الأصواتي. أما أول هذين: فهو تجريدي مكون من حروف، وأما الثاني، فهو أصواتي محسوس مسموع، مكون من أصوات"[16] .

أما عن الرموز التي استخدمها تمام حسان في تحديد مقاطع اللغة العربية، فهي:

- (ص) رمز للصحيح.
- (ع) رمز للمعتل[17].

هذه هي الرموز التي أوردها بداية في كتاب: **(مناهج البحث في اللغة)**، قبل أن يعدل عنها في كتابه الآخر: **(اللغة العربية معناها ومبناها)**، ويجعلها ثلاثة رموز، هي[18]:

- (ص) للصحيح
- (ح) للحركة
- (م) للمد.

وقد استقرَّت هذه الرموز الأخيرة في تآليفه الأخرى، مثل:**(البيان في روائع القرآن)**، و:**(خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم)**، و:**(مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن)**. لكن هذه الرموز وحدها غير كافية لدراسة مقاطع العربية، بل هناك شروط يجب أن تتحقق فيها، و هي تلك التي لخصها تمام حسان فيما يلي[19]:

– كل حرف متحرك يمثل بداية مقطع.

– كل صوت ساكن بعد حركة أو مد فهو نهاية مقطع، وقد يُشَدَّد هذا الساكن عند الوقف.

– هناك مقطع بحسب الأصل ومقطع بحسب الاستعمال، ويتصل هذا التفريق في الغالب بهمزة الوصل.

والمقاطع الصوتية للغة العربية كما يراها تمام حسان، تستقر في ستة هي[20] :

– المقطع الأول: (ص) هو المقطع الأقصر أو مقطع الوصل، ومثاله (الـــ) التعريف.

– المقطع الثاني: (صح) المقطع القصير، ومثاله (كَـــ) من كَتب.

– المقطع الثالث: (صم) هو المقطع المتوسط المفتوح، ومثاله (ما) النافية، و(في) الجارة.

– المقطع الرابع: (ص ح ص) المقطع المتوسط المقفل، ومثاله (لم) النافية، و(قم) فعل أمر.

– المقطع الخامس: (ص م ص) المقطع الطويل بالمد والإسكان، ومثاله: (قال) ساكنة الآخر.

– المقطع السادس: (ص ح ص ص) المقطع الطويل، لالتقاء الساكنين، ومثاله: (قبل) عند الوقف، و(ويب) من ذويبة في غير الوقف، وكذلك في تصغير حاقّة وطامّة، التي هي: (حويقة)، و(طويمة).

نلاحظ من جملة هذه المقاطع؛ أن هناك مقطعين قصيرين، وآخرين متوسطين، وآخرين طويلين، إضافة إلى اختلاف تمام حسان في المقطع المقفل مع ثلة من الباحثين، منهم الدكتور عبد الرحمن أيوب، وكمال بشر، وعبد الصبور شاهين، وإبراهيم أنيس، لأنهم لم يَعُدُّوه مقطعا، وإنما خرج تمام حسان عن الإجماع، فجعله مقطعا، ومثّل له بأداة التعريف (الـــ)[21] .

د – النبر Stress

سنبدأ كلامنا عن النبر، حيث أنهيناه عن المقطع، لأن:"المقطع والنبر متلازمان في الدرس والتحليل. فالمقطع حامل النبر، والنبر أمارة من أمارات تعرفه"[22].

ويرى تمام حسان أن هذا النبر ذاته يتمثل في وضوح سمعي نسبي، يتحقق في: "كون صوت من الأصوات في الكلمة أقوى من بقيتها... فالنبر إذا موقعية تشكيلية، ترتبط بالموقع في الكلمة، وفي المجموعة الكلامية، ويكون نتيجة عامل أو أكثر من عوامل الكمية والضغط والتنغيم"[23].

لكن السؤال الذي يجب وضعه في هذا السياق هو: **هل يوجد نبر في اللغة العربية، كما زعم تمام حسان، أم لا يوجد؟**

ذهب العديد من باحثي اللغة المحدثين إلى عدم وجود نبر في اللغة العربية الفصحى؛ وقد علّل الدكتور أحمد كشك ذلك بقوله: " ليس عندنا أي دليل مادي، يبين كيف كان العرب الأقدمون ينبرون كلماتهم، لأن اللغويين القدماء لم يهتموا بتسجيل هذه الظاهرة. وربما لم تلفت نظرهم، لعدم تدخلها في تغيير المعنى، أو ربما تنبهوا إليها"[24].

وقد عزز تمام حسان هذا الرأي في جانب، لكنه في نظره يتطلب: " شيئا من المجازفة، ذلك لأن العربية الفصحى لم تعرف هذه الدراسة في قديمها، وأغلب الظن؛ أن ما ننسبه للعربية الفصحى في هذا المقام، إنما يقع تحت نفوذ لهجاتنا العامية، لأن كل متكلم بالعربية الفصحى في أيامنا يفرض عليها من عاداته النطقية العامية الشيء الكثير"[25].

نستفيد من هذا الكلام، أن اللهجات العامية كان لها أثر كبير في بروز مجموعة من الظواهر النطقية لمتكلمي العربية الفصحى، كالنبر والتنغيم. وبهذا يكون تمام حسان أول من فتح هذا الباب في الدرس اللغوي العربي، بل أول من درس ذلك في اللغة العربية. وإليك أقسامه، كما وضعها تمام حسان[26]:

أ – نبر القاعدة: أو نبر النظام الصرفي، الذي ينسب إلى الصيغة الصرفية المفردة، والكلمة التي تأتي على مثال هذه الصيغة.

ب – نبر الاستعمال: أو نبر الكلام، والجمل المنطوقة، ويعرف أيضا بالنبر الدلالي، ولهذا النبر أثر سمعي؛ يرجع إلى أسباب عضوية محددة.

المحور الثاني: ملامح التجديد في المستوى الصرفي

يُعدّ هذا المستوى من أصعب مسالك اللغة، والذي جعله كذلك؛ هو التداخل بينه وبين العلوم الأخرى، ولعله حلقة الوصل المهمة بين الصوت والنحو، وقد أوضح الدكتور كمال بِشر أن النحو يستفيد من خدمة الصوت عن طريق الصرف، الذي: " يعتمد في مسائله وقضاياه على نتائج البحث الصوتي، وهو في الوقت نفسه يخدم النحو، ويسهم في توضيح مشكلاته"[27].

هذا العقد المتصل بين مكونات اللغة الثلاثة بدءًا بالصوت، ومرورا بالصرف، وصولا إلى النحو، هو الذي جعل تمّام حسان يعير هذا العنصر الصرفيّ اهتماما واسعا؛ من حيث الدراسة، والتمحيص، وإعادة النظر في بعض مكوّناته، في الوقت الذي أشاد فيه بجهود اللغويين العرب القدماء، وإثبات مكانتهم الرفيعة ـــ قديما وحديثا ـــ في هذا المجال منذ الصفحات الأولى من كتاب: **" اللغة العربية معناها ومبناها"**؛ حيث قال: " وهذه الشعبة من دراسة اللغة وإجادة القول فيها، أفردت الصرفيين العرب بمكان لا يدانيه أي مكان آخر في عالم اللغويين قديما أو حديثا، ولا يزال كشفهم عن النظام الصرفي العربي موضع الإعجاب والاحترام، وسيظل دائما كذلك في نظر اللغويين في مختلف أنحاء العالم".[28]

ويقوم هذا النظام الصرفي العربي على مجموعة من الاعتبارات التي تُعَد بحق ملامح تجديدية في مشروع الرجل.

1 – تقسيم الكلم:

وجد تمام حسان أن: "من أهم ما يلفت الانتباه في نظام الصرف هو أقسام الكلم، وهي أهم ما يقدمه الصرف للنحو، ويقدم النظام الصرفي عددا من الرؤى والدراسات، التي يسخرها لإيضاح التقلبات، التي تخضع لها هذه الأقسام، من حيث أصل الوضع، ومن حيث أصل الاشتقاق، ومن حيث معاني الصيغ المجردة... "[29].

ولا ريب أيضا أن تمام حسان لم يرض بتقسيمهم الثلاثي للكلم، لأنهم لم يزاوجوا في ذلك بين عنصرَي المعنى والمبنى، ولأن: " التفريق على أساس من المبنى فقط أو المعنى فقط، ليس هو الطريقة المثلى، التي يمكن الاستعانة بها في أمر التمييز بين أقسام الكلم، فأمثل الطرق أن يتم التفريق على أساس من الاعتبارين مجتمعين، فيبنى على طائفة من المباني، ومعها طائفة أخرى من المعاني"[30].

على أساس هذا المعنى والمبنى، أعاد تمام حسان النظر في الكلام العربي، وقدم بديلا لذلك التقسيم الثلاثي التقليدي للكلم، فجعله سباعيا، لكنه لم يكن أول من فعل ذلك، بل سبقه كل من الدكتور إبراهيم أنيس، الذي جعله أربعة أقسام، هي[31] :

– الاسم: ويضم الاسم العام والعلم والصفة.

– الضمير: ويضم الضمائر وألفاظ الإشارة والموصولات والعدد.

– الفعل: وهو الذي تتجلى وظيفته في الإسناد.

– الأداة: وتتضمن باقي ألفاظ اللغة من حروف للجر والنفي، وأدوات الاستفهام والتعجب، والظروف...

والدكتور مهدي المخزومي، الذي جعله أربعة أيضا، هي: (لاسم والفعل والأداة والكناية)[32].

وقد استفاد تمام حسان مما قدّمه الرجلان في هذا السياق، وسار على دربهما في تقسيم الكلم إلى أربعة أقسام، حصرها في: (الاسم، والفعل، والضمير، والأداة).[33]

والواقع أن تمام حسان لم يقتنع بهذا التقسيم الرباعي، الذي أسّس له إبراهيم أنيس، بل أعاد النظر فيه، وتداركه في تقسيم لاحق من كتابه:**(اللغة العربية معناها ومبناها)**، فجعله سباعيا، يتمثل في:(الاسم – الصفة – الفعل – الضمير – الخالفة – الظرف – الأداة).[34] وكان لتقسيمه هذا صدى ملحوظا عند جل الباحثين.

2 – أصل الاشتقاق عند تمام حسان:

اختلف القدماء في مسألة الاشتقاق، ومسألة والأصل والفرع، وغير ذلك من قضايا اللغة الدقيقة. وحسبنا في هذا السياق ذلك الخلاف الشهير بين البصريين والكوفيين حول أصل اشتقاق الكلم، أهو المصدر أم الفعل؟ أما تمام حسان فلم يقتنع بما قاله رواد هذَيْن الصرحَين في مسألة الأصل والفرع؛ لأن ذلك في نظره خارج عن المنهج السليم للدرس اللغوي الحديث، وذلك معنى قوله: " إذا صح لنا أن نوجد رابطة بين الكلمات، فينبغي لنا ألا نجعل واحدة منها أصلا للأخرى، وإنما نعود إلى صنيع المعجميين بالربط بين الكلمات بأصول المادة، فنجعل هذا الربط بالأصول الثلاثة أساس منهجنا في دراسة الاشتقاق، وبذلك نعتبر الأصول الثلاثة أصل الاشتقاق، فالمصدر مشتق منها، والفعل الماضي مشتق منها كذلك"[35].

لقد خرج تمام حسان من دائرة القدماء، وأشار إلى أن الأمر لم يعد مقتصرا على عمل الصرفيين فحسب، بل لا بد أيضا من النظر في أعمال المعجميين، الذين اعتبروا جذور الكلمات أصل الاشتقاق.

كما أن اتخاذ الأصول الثلاثة أصلا للاشتقاق عند تمام حسان، صاحَبَته أيضا إعادة نظر في قضايا أخرى، مثل: الجامد، والمشتق، والمتصرف، وغير المتصرف. وفي الرسم التوضيحي الآتي بيان لذلك:[36]

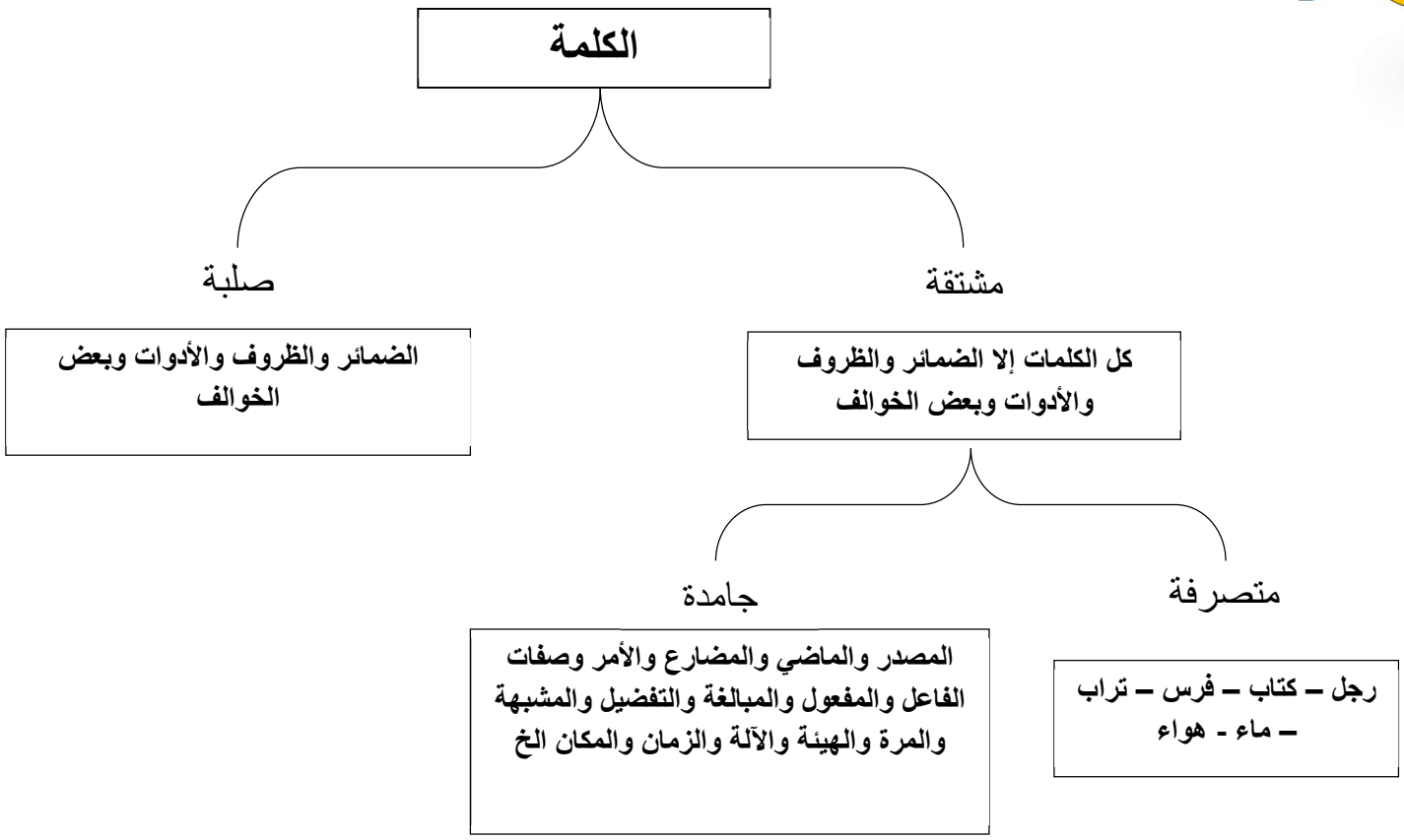

يبدو من خلال هذه المعطيات، أن تمام حسان عندما تفحَّص اللغة العربية جيدا، وجد أن الاشتقاق حلقة وصل مهمة بين الصرف والمعجم، إذ يرى أن الكلمة العربية ذات ثلاثة أصول، ترتبط بها من الناحية الاشتقاقية، وأن هذه الأصول الثلاثة إلى جانب استعمالها من الناحية الصرفية، تُتَّخذ مادة للكلمة، من الناحية المعجمية، وقد: " فطن إلى ذلك المعجميون، و لم يفطن إليه الصرفيون"[37].

وجملة الأمر؛ من قضية أصل الاشتقاق عند تمام حسان بهذا المنطق هو كونه: " دراسة صرفية مسوقة لخدمة المعجم، كما أن المباني، والزيادات، والملحقات، دراسة صرفية، مسوقة لخدمة النحو"[38].

3 – الصيغة الصرفية والميزان الصرفي:[39]

من الحسنات المحسوبة لتمام حسان في مجال الصرف، ذلك التمييز بين مصطلحَي الوزن والصيغة، لأن الصيغة مبنى صرفي، تقاس عليه الكلمة في بُعدها النظري. أما الوزن فهو ذلك المبنى الصوتي، الذي تقاس عليه صورة الكلمة المنطوقة؛ أثناء الأداء. وهذا يعني ضمنيا التفريق بين علمي الصرف والأصوات. أو كون أحدهما ينتمي لعلم الصرف، والآخر ينتمي لعلم الأصوات. أما إذا اتفق هيكل الصيغة مع هيكل الميزان، كما في الفعل (ضَرَبَ)، الذي صيغته (فَعَلَ)، وميزانه (فَعَلَ)، وصيغة الأمر منه (اضرِب) على وزن (افعِل)، فإنهما يختلفان في أمثلة أخرى، نحو: فعل الأمر (وقى) على مثال (اَفعِل) هو (قِ)، وهذا الحرف الوحيد الموجود في الفعل، يقابل العين المكسورة (ع) في الصيغة.[40] وعلى هذا؛ يمكن القول: إن هذه العين المكسورة، التي تقف بإزاء الفعل في صورته النهائية، تمثل الميزان، ولا تمثل الصيغة. وفي هذه المسألة يخالف تمام حسان علماء الصرف، الذين يُصرّون على وحدة الصيغة والميزان، لأنهم في نظره أنشأوا نظاما كاملا من الصيغ الصرفية، للكلمات المشتقة في العربية، بل إنهم كانوا يَعُدُّون الصيغة ميزانا للكلمة، و لم يفرقوا نظريا بينهما، فرأوا أن (قال) و(رمى) ونحوهما على وزن (فَعَلَ)، دون مراعاة لما فيهما من إعلال. بينما توصل علم اللغة الحديث إلى التفريق بين الصيغة والميزان، بدليل أن الصيغة قالب صرفي، والميزان مقياس صوتي. فصيغة فعل الأمر (عُدْ) هي (اَفعِل)، بسكون الفاء وكسر العين، لكن ميزانه (عِلْ)، أي أن الصيغة تجعله من باب (ضَرَبَ)، والميزان يعترف بالحذف، الذي حدث في الصيغة، والصيغة صرفية، والميزان صوتي[41].

المحور الثالث: ملامح التجديد في المستوى النحوي

ومن الأمور المهمة التي راعاها الدكتور تمام حسان في هذا المستوى، دراسة الظواهر اللغوية من حيث التحليل والتركيب، وهما أبرز ما أنتج التراث اللغوي عنده، ويمثّل ذلك كلٌّ من سيبويه وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) على التوالي[42]. وبناء على ذلك نظر إلى أقسام الجملة. وتنطلق الدراسات النحوية عموما في تحليلاتها من الجملة، لأن الجملة هي ميدان النحو، الذي يتكفل بدراسة الكلمات، في علاقة بعضها مع بعض، وبذلك يصبح لكل كلمة مع أختها معنى نحويا وظيفيا قائما على عنصر التأثير والتأثر، بحسب العوامل. وقد ربط تمام حسان ذلك بعنصرَي المعنى والمبنى، فكان من نتائج ذلك إعادة تقسيم الجملة:

أولا: من حيث المبنى:

لقد بنى تمام حسان تقسيمه للجملة العربية من حيث المبنى على عنصر معنوي هو الإسناد، وهو ما عبّر عنه بقوله: "علاقة الإسناد هي علاقة المبتدإ بالخبر، والفعل بفاعله، والفعل بنائب فاعله، والوصف المعتمد بفاعله أو نائب فاعله، وبعض الخوالف بضمائمها"[43].

يدل هذا الكلام على أن أقسام الجملة عنده ثلاثة هي: الجملة الاسمية، والجملة الفعلية، والجملة الوصفية، لكنه سيخرج عن هذا الإطار في كتاب:(**الخلاصة النحوية**)، الذي جعله تطبيقا لكتاب:(**اللغة العربية معناها ومبناها**)، وسيضيف جملة رابعة هي الجملة الشرطية. وإليك بيان ذلك:

1 – **جملة اسمية:** هي التي تتكون من مبتدإ وخبر، وهي تدل بأصل وضعها على ثبوت الحكم واستقراره بغير نظر إلى تجدد ولا استمرار. وقد ذكر فيها تمام حسان مجموعة من القرائن اللفظية والمعنوية، التي تُميِّزها: كالعهد، والإسناد، والبنية، والتضام، والرتبة، والربط، والإعراب.

2 – **جملة فعلية:** هي التي يتصدرها فعلُ فاعل أو نائبه، ولا بد لهذا الفعل أن يكون تاما غير ناقص، وهي تدل بأصل وضعها على الحدوث والتجدد في زمن معين.

3 – **جملة وصفية:** هي جملة خاصة عند تمام حسان تتضمن صفة الفاعل، وصفة المفعول، وصفة المبالغة، والصفة المشبهة، وصفة التفضيل، وتختلف كل صفة عن الأخريات من حيث المعنى والمبنى. وتقوم هذه الجملة عنده أيضا على الإسناد، كما في الجملتين الاسمية والفعلية، لأن هذه الخاصية في نظره: "من خواص الصفات تجعل من المقبول أن نتكلم عن (جملة وصفية)، تقابل الجملتين الاسمية والفعلية، وتكون هذه الجملة أصلية، وتكون فرعية"[44].

4 – **جملة شرطية:** قد أفرد لها تمام حسان قسما مستقلا بذاته، ورهنها بمجموعة من القرائن المعنوية والمبنوية التي تميزها[45]. وقد عبر الدكتور عبد الستار الجواري عن هذا النوع الأخير من الجمل بقوله: "جملة الشرط تستحق قسما قائما بذاته بين الجمل، لأن في طبيعتها وفي أداء معناها ما يميزها عن جملتي الخبر والإنشاء، وعن الجملتين الفعلية والاسمية".[46]

ثانيا: من حيث المعنى:

المعنى هو فرع الإعراب كما يقول النحاة، وبهذا المنظار نظَر القدماء إلى إسناد الجملة كما نظروا في معانيها، فكان الأول من اختصاص علماء النحو، وهو تحليلي بامتياز، وكان الثاني من اختصاص علماء المعاني، بينما ينفي تمام حسان هذه القطيعة بين العنصرين، ويحاول أن يصهر أحدهما في الآخر، وعليه يقسم الجملة من حيث المعنى إلى:

1 – **جملة خبرية:** كانت هذه الجملة واضحة المعالم، كاحتمالها الصدق والكذب لذاتها، وطريقة إلقاء الخبر، والغرض من ذلك، وكذا تكوينها من ركنين أساسيين لا بد منهما (المسند والمسند إليه)، و لم أعثر لتمام حسان فيها جديدا يستحق الذكر.

2 – **جملة إنشائية:** تتضمن الجملةُ الإنشائيةُ جملةَ الأمر، والتحضيض، والعرض، والإغراء، والنهي، والتحذير، والاستفهام، والتمني، والترجي، والدعاء، والنداء، وهي عند تمام حسان قسمان كبيران:

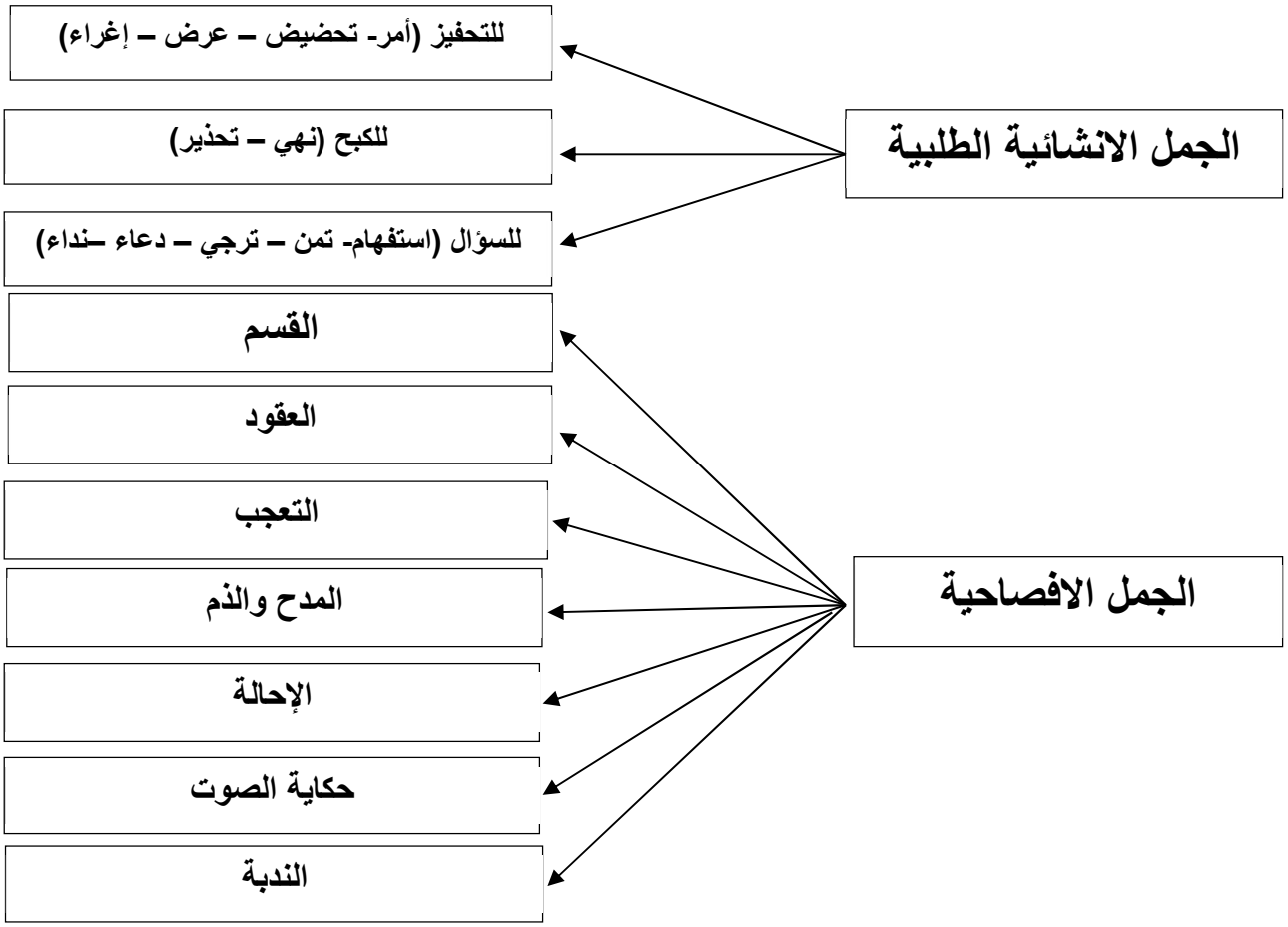

لقد أتاح جانب المعنى والمبنى لتمام حسان فرصة إعادة النظر في الجملة العربية، حيث أعاد تقسيمها من جديد، بإضافة عناصر وإزالة أخرى، مما جعلنا نلحظ اضطرابا كذلك، ففي كتابه:**(مقالات في اللغة والأدب)**،نجده يقسم الجملة من حيث المبنى إلى: اسمية، وفعلية، ووصفية، وهو تثبيت لما قال به في:**(اللغة العربية معناها ومبناها)**، ومن حيث المعنى إلى جملة خبرية، وشرطية، وإنشائية تنشطر إلى طلبية وإفصاحية[47]. لكننا نلمس في كتاب آخر له، وهو: **(الخلاصة النحوية)** أن الجملة الشرطية تندرج ضمن التقسيم المبنوي لا المعنوي[48]. ولا شك أن هذا ناتج عن التداخل بين المعنى والمبنى، والتكامل بينهما في جملة الشرط، كما رأينا سابقا.

المحور الرابع: ملامح التجديد في المستوى الدلالي

يعد الفضاء الدلالي أرحب بكثير من مستويات اللغة الأخرى، إذ حَولَه تدور اللغة بمفرداتها وتراكيبها، وما يتعلق بذلك من معان، ولعل تمام حسان أحد اللغويين المحدثين، الذين خصصوا صفحات عديدة من كتبهم لدراسة هذا الشق الدلالي من اللغة، وفيه يحاول استيعاب ثنائية المعنى والمبنى، لأن: "الارتباط بين الشكل والوظيفة هو الوظيفة وهو العرف، وهو صلة المبنى بالمعنى"[49].

كما بذل جهدا ليس بالسهل في مجال البلاغة، وخاصة إذا ارتبط الأمر بعناصر المقال والمقام والسياق، وكل ماله علاقة بالدلالة، متأثرا بأستاذه فيرث. يقول تمام حسان في كتاب:**(مناهج البحث في اللغة)**: "سنحاول في الصفحات التالية تلخيص نظرية أستاذنا ج . ر . فيرث في منهج الدلالة"[50].

ويحمل هذا المستوى هو الآخر العديدَ من الإشكالات التي واجهها تمام حسان، خلال إعادة هيكلته لمجموعة من الإشارات والمباحث، سنشير في هذا السياق إلى اثنين منها، وهما:

1 ــ سياق النص وسياق الموقف

– **سياق النص:**Contexte linguistique ويعرف أيضا بالسياق الداخلي للحدث اللغوي، ويمثله المستوى الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي، والمعجمي، وما يتعلق بذلك من وظائف. والمقصود به جانب الكلام واللغة، لما فيه من عناصر التركيب، وما تنتظم فيه من تصنيفات وتأليفات وعلاقات وقرائن.

– **سياق الموقف** :Contexte of situationويسمى بالسياق الخارجي، وهو تلك الأوضاع التداولية، التي تحيط بما يقال، وتُساعِد على فهمه، وتتجلى في أسباب النزول في القرآن الكريم، والمقام في شرح النصوص، كالقصائد التي لا يتسنى فهمها إلا بمعرفة سبب نظمها وظروف النصوص وقائليها عموما.

وكلا هذين النوعَين ناتجَين عن استفادته من نظرية أستاذه فيرثfirth في مجال البحث اللغوي، كما يظهر في تعريفه لمعنى السياق الذي يقول فيه: " المقصود بالسياق التوالي، ومن ثم يمكن أن ننظر إليه من زاويتين، أولاهما توالي العناصر التي يتحقق بها السياق الكلامي، وفي هذه الحالة نسمي السياق: (سياق النص)، والثانية توالي الأحداث، التي هي عناصر الموقف الذي جرى فيه الكلام، وعندئذ نسمي السياق: (سياق الموقف) "[51].

2 – تشقيق المعنى:

كان تمام حسان من الأوائل الذين نادوا بهذه الخطة في مقال له نُشِر سنة1959م، تحت عنوان: **" تشقيق المعنى"**، وقد بيّن غرضه من هذا المقال منذ البداية، فقال: "وهدفي في هذا المقال أن أصنع تخطيطا جديدا لتشقيق المعنى، ينبني في أساسه على ما قال به هؤلاء اللغويون، وينفرد بمنهج خاص في تحديد بعض المصطلحات العربية، وفي الانتفاع بها في الأغراض العلمية لهذا المقال"[52].

وبعد أن بيّن تمام حسان غرضه الذي المتعلق بموضوع تشقيق المعنى، تطرق إلى فكرة مفادها أن: "كل دراسة للغة لا بد أن تتجه إلى الكشف عن المعنى، وكل نشاط في دراسة اللغة لا بد أن يتجه إلى فحص المعنى، والكشف عنه كشفا واضحا"[53].

وقد أكد هذه الفكرة في موضع آخر من كتاب:**(اللغة بين المعيارية والوصفية)**، فقال: "إن كل دراسة لغوية لا بد أن تتجه إلى المعنى. فالمعنى هو الهدف المركزي، الذي تُصَوَّب إليه سهام الدراسة من كل جانب، على النحو المبين في الشكل الآتي:

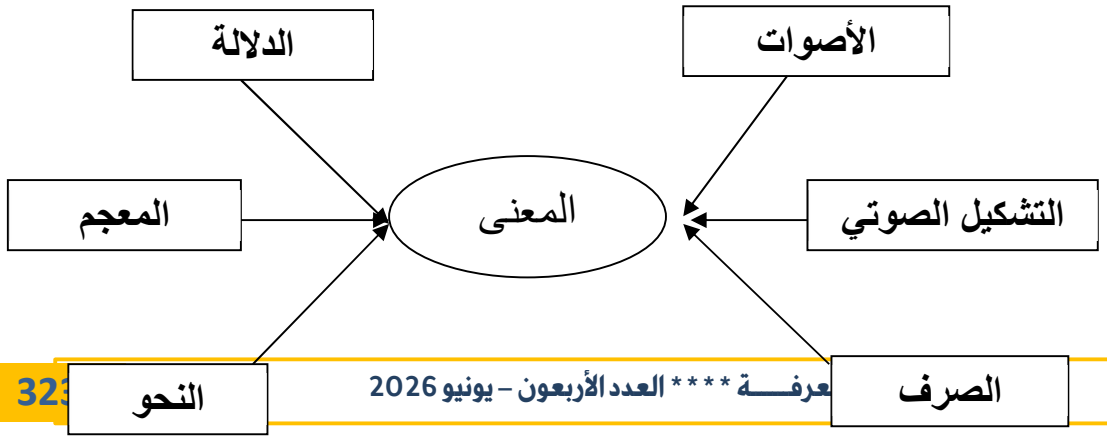

وهكذا يصبح المعنى مشققا، ويستقل كل فرع من فروع الدراسات اللغوية بقسط من هذا المعنى يوضحه ويبين عنه، ويعين على كشفه، بقطع النظر عمّا إذا كان هذا القسط مما يتصور فهمه، مستقلا عن الهيكل العام للمعنى المركب أم لا"[54].

من خلال الشكل الذي قدمه تمام حسان لتشقيق المعنى، يتضح أن هناك جوهرا للدراسات اللغوية، وهو المعنى، ويحتاج هذا الجوهر إلى تدرج في مستويات اللغة للوصول إليه. ولعل هذا أحد الأبواب التي أدّت بتمام حسان إلى الدفاع عن المعنى.

الخاتمة

يتبيّن لنا من خلال ما سبق أن تمام حسان بذل مجهودا كبيرا في إثبات أن للغة العربية هي الأخرى أنظمة، على غرار سائر اللغات الأخرى، حيث استفاد مما قدّمه الترث العربي، ونهل مما أثاره الغربيون من حيث المنهج، فكان أن أعاد النظر في هيكلة الدرس اللغوي العربي في شموليته، وعمل على تقويم مستوياته باعتبارها أنظمة، وفهم بنياته تنظيرا وتطبيقا دون المساس بخصوصياته، وهو ما فسح له المجال للتفرد ببعض الاجتهادات التي تعد بحق ملامح تجديدية في مشروعه، بدْءا بالمستوى الصوتي كتمييزه بين الحرف والصوت، والفونيم والألوفون، وتحديده لقواعد المقاطع الصوتية والنبر في العربية باعتباره أول من ولج هذا الباب. ثم المستوى الصرفي، حيث جعل التقسيم الثلاثي للكلم رباعيا، قبل أن يعدل عن ذلك للتقسيم السباعي الذي استقر عليه، فضلا عن تحديده لأصل الاشتقاق اعتمادا على أصول (جذور) الكلم الثلاثة، ارتباطا بصنيع المعجميين، وخلافا لرأي البصريين والكوفيين، ثم تمييزه بين الصيغة الصرفية و الميزان الصرفي. بينما ركّز اهتمامه في المستوى النحوي على أقسام الجملة بناء على تراكيبها وتحليلاتها، ثم ربطها بعنصرَي المعنى والمبنى، فكان من نتائج ذلك إعادة تقسيم الجملة من حيث المبنى إلى جملة اسمية، وفعلية، ووصفية، وشرطية، بدل جملتين اسمية وفعلية. ومن حيث المعنى إلى جملة خبرية وجملة إنشائية تنقسم بدورها إلى جمل إنشائية طلبية وجمل إنشائية إفصاحية. أما المستوى الدلالي فحسبه فيه ذلك التمييز بين السياق اللغوي والسياق الموقفي، وكذا إثارته لفكرة تشقيق المعنى التي تلقّف مبادئها عن أستاذه جون روبرت فيرث، ودافع عنها دفاعا كبيرا.

الهوامش:

[1] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، شارع فكتور هيكو، الدار البيضاء، المغرب، طبعة 1994م، ص.10

[2] صلاح الدين صالح حسنين، جهود الدكتور تمام حسان الصوتية، مقال ضمن الكتاب التذكاري، تمام حسان رائد الغويا، عبد الرحمن حسن العارف، عالم الكتب القاهرة، 2002م ص 191

[3] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها ص.50

[4] تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1420ه / 2000م، ص 25 وما بعدها بتصرف.

[5] غانم قدوري الحمد، فكرة الصوت الساذج وأثرها في الدرس الصوتي العربي، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد 4، 1428 ه، ص 203.

[6] تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة،1421ه / 2000م ، ص.119

[7] أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنبر (سيبويه)، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة، 1408ه / 1988م، ج4 ص 433

[8] تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى 1955م ص .158

[9] نفسه، ص.159

[10] تمام حسان، البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، رجب 1413ه/ 1993م، ص 149.

[11] ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثامنة، 1419 ه / 1998م، ص96.

[12] جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعية التونسية، 1966م، ص96.

[13]غانم قدوري الحمد، المدخل إلى علم أصوات العربية، دار عمار، عمان، الأردن، ط 1، 1425ه / 2004م، ص 202.

[14] تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص.170

[15] Elément de linguistique générale, Andrée martinet, p: 18.

[16] تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص.173

[17] نفسه، ص.173

[18] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص .69

[19]تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص.258

[20] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص.69

[21]جمال غشة، الدرس اللساني عند تمام حسان، رسالة دكتوراه، إشراف الدكتور عمّار شواي، تخصص علوم اللسان العربي، جامعة محمد خيضر(بسكرة)، الجزائر، 1441ه – 2020م، ص 124-125.

[22] كمال بشر،علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، طبعة 2000م، ص .503

[23] تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص.194

[24] أحمد كشك، من وظائف الصوت اللغوي: محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، دار غريب للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 01 يناير 2007، ص 308.

[25] تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص.164 – 163

[26] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص.172

[27] كمال بشر، دراسات في علم اللغة: القسم الثاني، دار المعارف بمصر، (د ط)، 1969م، ص.84

[28] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص .15

[29] تمام حسان، الفكر اللغوي الجديد، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى 2011م، ص.31 – 30

[30] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص.87

[31]إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1966م، ص 266 وما بعدها.

[32]مهدي المخزومي، في النحو العربي: نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1406ه / 1986م، ص 100 وما بعدها

[33]تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 230 وما بعدها

[34] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 86 وما بعدها

[35] نفسه، ص 169

[36] نفسه، ص .170

[37] مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص.216

[38] اللغة العربية معناها ومبناها، ص .169

[39] هذا العنصر قمت باختصاره عن أطروحة: آليات تيسير الدرس اللغوي العربي في فكر تمام حسان، إسمهان مصرع، ص 247 وما بعدها .

[40] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 144 ــ .145

[41]تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1427ه / 2006م، ص 277. وينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص145

[42]تمام حسان، اللغة العربية معناها ومعناها، ص 10

[43]تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص.194

[44] نفسه، ص.103

[45] تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى 1420ه – 2000م ص.136 – 133

[46]عبد الستار الجواري، نحو المعاني، المجمع العلمي العراقي، بغداد، الطبعة الأولى 1407ه – 1987م ص.116

[47] تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج 1 ص.79

[48] تمام حسان، الخلاصة النحوية، ص.133

[49] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص.09

[50]تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 285

[51]تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428ه – 2007م ص.237

[52]تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج1، ص.330

[53] نفسه، ج1، ص.329

[54] تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص.118